Abhat Journal, Volume. 17, Issue. 2, September 2025

Abhat Journal, Faculty of Arts, Sirte University مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/ABHAT/index

Doi : http://doi.org/10.37375/aj.v17i2.3507

الوضع الاجتماعي في مكة المكرمة في القرن الحادي عشر الهجري من خلال المصادر اليمنية

أ. يحيى عبد الله عبد الكريم المحرابي
طالب دكتوراه/ قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة إب– اليمن
Yhyyalmhraby7@gmail.com

الملخص:

تطرّقت المصادر التاريخية اليمنية لوضع مكة الاجتماعي في القرن الحادي عشر الهجري في شتى الجوانب وجعلت الباب مفتوح لدراسة متكاملة، فتطرقت لأمراض أصابت سكان مكة المكرمة، كما تناولت التركيب السكاني لمكة وعوامله الداخلية والخارجية، كما تناولت بعض ما لصق بالمجتمع المكي من فساد إداري، وتناولت عادات وتقاليد كانت سائدة فيها في جوانب شتى، كل ذلك وغيره ورد في المصادر اليمنية المطمورة بتراب الإهمال والنسيان، الأمر الذي يدعو إلى الاهتمام بها وإعادة تأهيلها، والذي بدوره يجدد الفرصة لتدوين تاريخ مكة وغيرها من البلدان في معظم المجالات في أغلب الحقب الزمنية.

الكلمات المفتاحية:

التركيب السكاني، الفساد الإداري، العادات والتقاليد المكية.

معلومات النشر:
تاريخ الاستلام: 2025/07/19
تاريخ القبـــول: 2025/08/08
تاريخ النشـــر: 2025/09/01

The Social Status in Mecca in the 11th AH Century from Yemeni Sources

Yahya Abdullah Abdulkareem AL-Meharb
Department of History, Faculty of Arts, Ibb University - Yemen
Yhyyalmhraby7@gmail.com

Abstract:

Yemeni historical sources have addressed the social situation in Mecca in the from 11th AH Century from various aspects, opening the door for comprehensive studies. These sources have discussed diseases that affected the residents of Mecca, as well as the demographic composition of Mecca and its internal and external factors. They have also explored some of the administrative corruption, customs and traditions prevalent in Meccan society in various aspects. All of this and more can be found in Yemeni sources that have been buried under dust and neglect, highlighting the need for attention and rehabilitation. This, in turn, would provide an opportunity to document the history of Mecca and other countries in most fields across different time periods.

Keywords:

Demographic composition, Administrative corruption, Meccan customs and traditions

Information:
Received: 19/07/2025
Accepted: 08/08/2025
Published: 01/09/2025

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد البشرية خاتم المرسلين وبعد، فقد اختار الله مكة وكرّمها ببناء الكعبة المشرفة فيها، وبسكن إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، وبها المسجد الحرام وقبلة المسلمين، وبها بُعِثَ خاتم الأنبياء والمرسلين، وغمرها بكثير من المميزات الدينية والتاريخية العظيمة؛ مما يشير ويوجه لأهمية إعطائها الألوية في البحث والدراسة.

أسباب اختيار البحث:

اطلعت على كتـاب: (صفحات من تاريخ مكـة المكـرمة) لصـاحبه المستشرق سنوك هور خورنيه الهولندي ففوجئت بمَا حصل لهذا الكتاب من احتفاء الإعلام السعودي به، إذ ورد ذكره في أكثر من برنامج إذاعي، كما كتبت عنه مختلف الصحف والمجلات السعودية، حتى أصبح هذا الكتاب أكثر إصدارات نادي مكة الثقافي مبيعاً. وكما هو معروف أنّ مكة المكرمة تُعدّ إحدى أهم الأماكن المقدسة لدى المسلمين في العالم، ومن العجب العجاب أنْ يؤرخ لها عدد من المستشرقين الأوربيين – بغض النظر عن أهداف ومرامي دراساتهم المسيئة– أمثال سنوك المذكور آنفاً، والمستشرق ويستنفيلد صاحب كتاب (أخبار مكة المشرفة)، إذ لا يُتّفَق مع أفكارهما كل قارئ عربي

©Abhat Journal, Sirte University 2025

مسلم مما يعرّض تاريخنا الإسلامي والعربي إلى الحشو والدَّس بما ليس فيه. وهذا يشير إلى أنّه ينبغي أنْ يُؤرخ لمكة أهلها، ويكون لجوء الجهات المعنية للاعتماد على هذا النوع من الدراسات؛ بسبب غفلتها عن المادة التاريخية الغزيرة الموجودة في التراث اليمني والعربي والإسلامي.

أهداف البحث:

بناءً على ما سبق كان لا بد من المبادرة لإيجاد البديل العربي فكانت هذه الدراسة والتي تتحدث عن الوضع الاجتماعي لمكة المكرمة في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي من خلال المصادر اليمنية، كأنموذج يثبت توفر المادة التاريخية في التراث العربي عموماً، يغنينا عما لدى المستشرقين.

الدراسات السابقة:

كون البحث خاص بمكة من المصادر اليمنية حصراً وقصراً فيُعد جديداً؛ إذ لم تسبقه دراسات –حسب علم الباحث– وما هو موجود من دراسات كانت عامة لم تعتمد على المصادر اليمنية، والذي في اعتقاد الباحث أنّه لم يكن ذلك تعمداً، بل كان غفلة، وأخشى أنْ يكون كسلاً؛ لأنّ اللؤلؤ الغالي الثمن يُحصل عليه بالغوص في أعماق المحيطات؛ ولذلك تُعدّ هذه الدراسة أنموذجاً تطبيقياً يثبت الجدارة والحضور القوي للمصادر التاريخية اليمنية في كل حقبة تاريخية، وفي كل مجال يخدم البشرية.

وسوف نذكر هنا بعض الدراسات السابقة الشاملة للحقبة موضوع الدراسة والتي تناولت مكة من مصادر غير يمنية، والتي تتمثّل في كتاب: (تاريخ زيني الدين دحلان المسمى خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من سيدنا محمد إلى وقتنا بالتمام) لأحمد بن زيني دحلان (ت: 1304هـ /1886)، وكتاب: (تاريخ مكة) لمؤلفه: أحمد السباعي (ت: 1984)، والذي يتحدث عن حقبة زمنية تقارب أكثر من عشرين قرناً من الزمان، وكتاب: (منائح الكرم في أخبار مكة وولاة البيت والحرم) لعلي السنجاري المكي، والذي كانت مصادره كثيرة، وتحدث عن الحقبة من عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى أحداث سنة 1124هـ/1712م؛ ونجد كما رأينا أنّ تلك الدراسات شملت حقباً زمنية طويلة، والتي تقتضي الإيجاز، وعدم إيراد تفاصيل من الأهمية بمكان إيرادها، والتي لم تغفلها المصادر التاريخية اليمنية.

مصادر الدراسة: كان الوصول للمصادر التاريخية اليمنية المتعلقة بهذه الدراسة بعد عناء ووقت كبيرين؛ وذلك لكثير من العوائق يصعب إيرادها هنا–خشية الإطالة– وبالأخير وصل الباحث لعدد من المصادر، وبعد البحث والدراسة كانت المفاجأة المتضمنة أنّ المصادر المعنية– المقيدة في آخر هذه الدراسة– كانت ممتلئة بمادة تاريخية غزيرة جداً ليس عن مكة فقط، ولكن شملت بلدان عدة عربية وإسلامية، ليس بالمجال الاجتماعي، ولكن شملت معظم المجالات، كما كانت دقيقة شاملة جاءت بروايات كمن يشاهد الواقعة، حتى أيقن الباحث أنّه حصل على كنز كبير. ومن هنا نسلّط الضوء على بعضها فكان منها: كتاب (عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر الهجري) لصاحبه: محمد بن أبي بكر الشلي والذي سلّط الضوء على كثير من الجوانب الاجتماعية والتعليمية والسياسية لمكة المكرمة وغيرها من البلدان، وكتاب (تاريخ اليمن المسمى طيب أهل الكساء والفلك الذي على جود النجاة رسا) لصاحبه: أبو طالب حسام الدين محسن بن الحسن والذي أشار إلى جوانب اجتماعية خاصة القبيلة ودورها في المجتمع المكي، أيضاً كتاب (بهجة الزمن في تاريخ اليمن ليحيى بن الحسين، والذي حصلت عليه دراسة محققة ضمن دراسة قامت بها أمة الغفور الأمير المسماة الأوضاع السياسية في اليمن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي والذي تطرّق لبعض الأوضاع الاجتماعية فتحدث عن بعض ما أصاب مكة من أمراض وفناء، كما أشار كثيرًا لبعض القوى الاجتماعية في المجتمع المكي، وهكذا سيتضح للقارئ ما تطرّقت له المصادر التاريخية اليمنية من مساهمات في جوانب شتى.

المنهجية البحثية: اتبعت هذه الدراسة منهج البحث التاريخي بتتبع أولئك الأعلام في بطون كتب الطبقات والتراجم وغيرها من كتب التاريخ، وما أنتجوه من تراث معرفي إنساني، ثم منهج التحليل والوصف والمقارنة والربط المتضمن جمع الحقائق والمعلومات من كتابات المؤرخين اليمنيين، وضبط الظواهر المستنبطة من المصادر واخضاعها للدراسة والتصرف – عند الضرورة– بموضوعية ونزاهة ودقة، بل وإخضاع هذه المعلومات والبيانات للنقد والتحليل والتمحيص، وأدرجت الدراسة أيضاً علماء كانت وفياتهم في العقود الأولى من القرن الثاني عشر؛ وذلك لأنّ الكثير من جهودهم كانت في القرن الحادي عشر الهجري، وحاولنا بقدر ما سمحت لنا به المصادر أنْ نضع أمام كل عالم نذكر سنة وفاته.

حدود البحث:

يُقصد بمكة المكرمة عاصمة ولاية الحجاز العثمانية –في القرن الحادي عشر الهجري– وما إليها من البلاد والمدن والموانئ المطلة على البحر الأحمر غربا، والممتدة شمالاً إلى شمال المدينة المنورة إلى حلي بن يعقوب جنوباً إلى بلاد الحسا شرقاً، الأمر الذي يجعل السلطنة العثمانية مصدر سلطات مكة، فهي التي تصدر الخلع السلطانية لمن تكلفه أميراً على ولاياتها، والإدارات المهمة فيها، بينما كلمة "المصادر اليمنية" هنا يُقصد بها المؤلفات والتي عاش أصحابها في تلك المنطقة الجغرافية التي أُطلق عليها اليمن ودونوا عن تلك الحقبة من الزمن المعنية بالدراسة.

الصعوبات التي واجهت البحث:

ينبغي أنْ نشير إلى أنّ الوصول إلى المصادر اليمنية الواردة لم يكن بالسهل، إلّا بعد ذهاب كثير من الجهد والمال والوقت هباء في عناوين قريبة مغربة متشابهة؛ مما كلّف جهداً كبيراً في الوصول إليها، وكانت النتيجة هي سراب بقيعة، فكان اسم المصدر مختبئ بين السطور، وفي بطون الكتب والمصادر والتراجم.

أيضاً صعوبة استمداد المادة التاريخية من تلك المصادر المتمثّل بأسلوب الكتابة المتبع آنذاك، المتصف باستخدام عبارات ومفردات دارجة في تلك الحقبة من الزمن والتي تأتي متشابكة متداخلة، أيضاً منهجية إيراد التاريخ، كما تتضمن العديد من الموضوعات المختلفة العشوائية، مع عدم وضع عناوين، وعدم تناغم المعلومة بين المصادر واختلافها في التاريخ، ونقص إيراد الواقعة، ونقل المصادر بعضه من بعض، الأمر الذي يحدث لبساً كان من الصعوبات التي واجهتني مما جعل الباحث يرجع للمصدر والصفحة أكثر من مرة للتأكد والمقارنة.

تقسيم البحث:

تمّ تقسيم البحث لثلاثة مباحث تبدأ بمقدمة وتنتهي بنتائج وتوصيات والمباحث كما يأتي:

المبحث الأول: ديمغرافيا سكان مكة المكرمة.

المبحث الثاني: الفساد الإداري داخل المجتمع المكي.

المبحث الثالث: عادات وتقاليد سكان مكة.

المبحث الأول: ديمغرافيا سكان مكة المكرمة.

علم السكان أو الدراسات السكانية أو الديمغرافيا هو فرع من علم الاجتماع يقوم على دراسة علمية لخصائص السكان في كثير من الجوانب؛ والمصادر المعنية تناولت بعض الجوانب المتعلقة بمكة فذكرت بعض أمراض السكان، كما تناولت التركيب السكاني، ويأتي علينا توضيح ذلك كما يأتي:

– **أمراض السكان وفناؤهم**: تناولت المصادر ذكر بعض الأمراض التي كانت تصيب بعض السكان في مكة المكرمة في الحقبة المعنية والذي يتضح أنّه لم يُوجد له علاج هناك وقتئذ، ففي هذا الشأن تتحدث بعض المصادر أنّ سكان مكة المكرمة ونتيجة لتعرضهم لشدة الحرارة، ولشدة الاشتغال كانوا يزاولون العلاج بما يسمي الفِصد وهو شق العرق لاستخراج مقدار من دم الوريد بقصد العلاج، في الأسبوع مرتين، وذلك لمقاومة شدة الحر، وشدة الاشتغال، وكان هذا وارد حتى سنة 1007هـ/ 1598 حسبما ورد. (الشلي: 2014، ص267.)

أيضاً ورد في سنة 1052هـ/ 1642 ذكر المصدر نفسه أنّه توفي الشيخ محمد بن عمر المشهور بالغزالي بسبب مرض يقول الشلي عنه: ابتلي ببعض أسقام منعه من طيب المنام، حتى وافاه الموت. (الشلي: 1314هـ، ص16).

كما ذكر الشلي في عقد الجواهر مرضاً آخراً بمكة تُعُورِفَ عليه بعلة الإسهال، والتي كانت سبباً لوفاة العالم الجليل محمد بن المنعم الطائفي بمكة سنة 1052هـ/ 1642. (الشلي: 2014، ص642.)

أيضاً ذكر الشلي في هذا الشأن أنّه مَرِضَ بمكة الشيخ محمد بن علي العيدروس صاحب الشبيكة (ت: 1066هـ/ 1655) وأنّه ابتلي في آخر عمره بمرض لم ينفع فيه طب ولا طبيب حتى وافاه الأجل. (الشلي: 1314هـ، ص195).

– **مرض الحزاز**: يعتقد الباحث أنّ المقصود منه ما أوردته بعض المعاجم من أنّه قشر النخالة في الرأس يحُزُ فيه، وفي القاموس المحيط: الطعام يحمض في المعدة، يحيى بن الحسين تحدث بظهور مرض الحزاز– أورده المصدر بالجذار– وأنّ هذا المرض المتفشي ذهب عن الناس بعد هطول الأمطار أثناء موسم الحج سنة 1079هـ/1668. (ابن القاسم: 1996م، ص179)

– **الموت الجماعي (الفناء)**: تعرّضت مكة المكرمة لموجات من الموت الجماعي تسميها المصادر بالفناء، ذُكر أنّه: في سنة 1078هـ/1667 حدث فناء وموت وكثرة الجنائز، وبعض المصادر ذكرت أنّه كان يخرج من مكة في اليوم نحو مائة جنازة، وهلك من الدواب والأنعام ما لا حصر لها، وما زاد على ملاكها إلّا حزن فوق حزن. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 220.) والمصادر ترجع سبب ذلك

إلى القحط الواقع بمكة (الوزير: 1985، ص232.) ففي هذا يؤكد يحي بن الحسين في البهجة: أنّه وصله الخبر في سنة 1079هـ/ 1668 –مشيراً للسنة السالفة الذكر 1078هـ/1667–أنْ مات خلق كثير وهائل وفناء واقع عم العالم، وعم جميع اليمن، وشمل مكة والحجاز، قال: عالم لا يحصى. (الأمير: 2008، ص709) ويتبيّن ممّا ورد أنّ ما أصاب مكة هو ما أصاب رقعة واسعة من العالم.

كما تحدث يحي بن الحسين عن موجة أخرى من الموت الجماعي أصاب مكة والذي حدث في سنة 1085هـ/ 1674م فقال: إنّه حصل وباء في الديار الحجازية، ومرض شديد عم جميع البيوت، ومات خلق كثير (الشلي: 2014، ص813) ولم يوضح أي تفاصيل تخص هذا الوباء ومصدره.

– تركيب السكان: تناولت المصادر الكثير ما يشير إلى أنّ مكة تمثّل مجتمعاً سكانياً متبايناً له خلفياته المتنوعة في الحقبة المعنية بالدراسة، ويعتقد الباحث أنّ ذلك يرجع إلى التنوع الخارجي، فكثير ما يرد في المصادر اليمنية عدة مفاهيم منها تركي، وهندي (الشلي: 2014، ص441)، ومصري، ويمني، وشامي، ومغربي مما يبيّن أنّ المجتمع المكي خليط من جميع الأجناس العالمية التركية، والفارسية، والشامية، واليمنية، والمصرية، والعراقية، والهندية، والمغربية. ويعتقد الباحث أنّ هذا التنوع يندر أنْ يكون في مكان آخر غير مدينة مكة الأمر الذي يمكن أنْ توصف مكة بالمدينة العالمية.

أيضاً تجد في المصادر اليمنية مفاهيم عدِّة أخرى تشير إلى تركيب سكانٍ آخر مثل مفهوم مرتحل، أو وافد، أو مجاور، أو نزيل، أو وارد، فعلى سبيل المثال ذكر: نزيل مكة علوي بن علي السقاف (ت: 1048هـ/1638). (الشلي: 2014، ص609) ونزيل مكة الشيخ محمد بن سليمان المغربي (ت:1093هـ/ 1682)، (الشلي: 2014، ص863)، وتاج الدين الهندي نزيل مكة (الشلي: 2014، ص16)، وذكر من العلماء المجاورين الشيخ علي القاري (الشوكاني: 2006، ص42–43) وذكر المرتحل لمكة الشيخ عبد الجامع بن أبي بكر الاخذ عن الوافدين. (الشلي: 2014، ص788)

كما تبيّن أنّ هناك عوامل داخلية لعبت دوراً في تركيب سكان مكة منها: تضاريس مكة الجبلية؛ إذ ورد مفهوم الجبالية (الشلي: 2014، ص441)– سكان الجبال– الأمر الذي يشير إلى سكان المدن، كما أنّه ورد مفهوم آخر له دلالاته مثل عبيد واتباع، فورد في المصادر ما يشير إلى هذه الشريحة من المجتمع، وذكر ذلك الجرموزي في الجوهرة ما مفاده: كان العبيد يطلق عليهم مماليك فورد المملوك علي بن بركات، وورد المملوك ظافر بن شبير والذين كانوا من أعيان مكة (الثور: 2004، ص641)، كما أنّ بهجة الزمن عند ذكره للشريف سعد بن زيد كان يتناول اسم أحد مماليكه يسمى بلال (الأمير: 2008، ص787)، كما أشار بوجود الجواري للشريف حسن بن أبي نُمي (الشلي: 2014، ص275)، والشريف محسن بن حسين. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 115)

يؤكد ما سبق ما ذكره الشلي باستقواء أحد أشراف مكة على خصمه مستعيناً بالأتراك عن يمينه وشماله، كما أنّه اتخذ جباليه نحو المائتين، وقال له اتباع وعبيد (الشلي: 2014، ص392) ثم أورد المصدر أيضاً فقال: فما كان من الشريف الآخر إلّا أنْ استعان بالأشراف والقواد والعرب، الأمر الذي يشير إلى تنوع ديموغرافي للسكان في مكة (الشلي: 2014، ص394) فهذه المفاهيم تشير إلى تركيب السكان في مكة تلك الحقبة من الزمن متأثرة بالعوامل الداخلية.

ومن العوامل الداخلية الأخرى المؤثرة في تركيب السكان في مكة هو الجانب الأسري، فورد تزعّم أشراف مكة وخاصة آل قتادة الذين يشعرون بنوع من السمات التي تميزهم عن غيرهم، مما حدا بأحد شعراء آل قتادة بمدح بني عمه ملوك مكة إذ يورد أحد المصادر ذلك قائلًا: (الشلي: 2014، ص568)

عهدي بما كانت كناس الضبا	:::	**ومرتع الأسد حماة الظعون**
ليوث حرب جيشها مـــــارق	:::	**أنيابها فوق المذاكي قرون**
حتى غدا من بعدهم ربعـــها	:::	**مقتاد جارت عليه السنون.**

ثم يرد علينا من المصادر ما يشير إلى نتائج التركيب السكاني في مكة المكرمة والذي ينتج عنه كثير من التباين، أورد الشلي بعض الأحداث الغريبة في مكة لها دلالاتها الاجتماعية من ذلك في سنة 1030هـ/ 1620 وافق يوم الأحد الثامن عشر من جماد الأول أنْ وقع في المسجد الحرام أمر عجيب وسببه: أنّ جبليا أراد الطواف، فأودع سيفه عند رجل هندي، فمر به رجل تركي، فسلَّ الهندي السيف وقتل التركي، فثار الناس على الهندي، فطردهم إلى باب الصفا، فتكاثرت الناس ورموه بالحجارة فطردهم، فأحاطوا به، وضربه رجل عند زمزم بإبريق فزلق بالبلاط، ووقع فضرب بجنبيه ومات التركي والهندي (الشلي: 2014، ص441) هذه القصة والتي تشير–حسب اعتقاد

الباحث- إلى أنّ الجبلي دائماً يحمل سلاحه؛ لأنّه معرض للاعتداء من قِبل المدنيين، وكما تشير الحادثة أيضاً إلى أنّ الأتراك قوة عسكرية حاكمة تمنع غيرها من حمل السلاح في مكة، بل يشعر أي فرد منها أنّ له الصلاحيات الواسعة، مما أنتج مثل هذه الكارثة.

أيضاً تبيّن للباحث أنّ من ضمن القوى الاجتماعية الموجودين في مكة العثمانيون فهم يعتبرون قوة اجتماعية موجودة في مكة تلعب أدواراً اجتماعيةً وتمارس عاداتها وتقاليدها، ورد في بهجة الزمن ما يشير إلى ذلك، فأشار بحدوث فتنة في المدينة المنورة سنة 1090هـ /1679 بين عساكر السلطنة العثمانية بينهم البين، أدت لمقتل جماعة، وقُتِل في هذه الفتنة حاكم الشريعة، فطلبهم باشا مصر، فقَتَل بعضهم، وطرد الباقين من الوظيفة العامة، ونَكّلَ منهم وأبدلهم بغيرهم (الأمير: 2008، ص1113)، المصدر نفسه ذكر حصول فتنة بين كلٍّ من عسكر السلطان العثماني وبين عسكر الشريف بركات في شهر رجب 1092هـ/1681م؛ بسبب أنّ بعض أصحاب الشريف قتل رجلاً عثمانياً فهاج الأتراك على أصحاب الشريف، لكن شريف مكة تدارك الأمر فقاصص وقتل القاتل من أصحابه. (الأمير: 2008، ص1148) الأمر الذي نخلص له أنّ تجمع مكة السكاني في القرن الحادي عشر الهجري تتعدد وتتنوع فيه التواجد الإنساني غير العربي والتي تفرض وجودها في مجتمع مكة إضافة إلى التنوع العربي والتنوع المحلي هذا التنوع في مكان واحد يندر أنْ يكون هناك مكان مثله مما أنتج حالةً فريدةً متميزةً بذاتها الأمر الذي يستدعي دراسة خاصة أكثر عمقاً يُعطَى حقه من التحليل والمناقشة فتؤتي أكلها على المستوى المحلي والإقليمي والدولي.

- القبيلة: من تتبع الباحث للمصادر اليمنية وجد أنّ من العوامل الداخلية والتي تلعب دوراً في التركيب السكاني لمكة المكرمة (القبيلة)، ووُجِد أنّ مجتمع الحجاز ومكة كان متمسكاً بالقبيلة يلجأ إليها رغم المعاناة التي تعرضت لها القبيلة من وقت لآخر، وتبيّن أنّ المصادر أوردت في الحقبة المعنية بالدراسة أسماء عدة قُبُلْ، أيضاً ذكرت المصادر أدوارها الاجتماعية والعسكرية والسياسية، منها قبائل هذيل من جهة الطائف، وقبائل عنز ولام- قبائل عنزة: تمتد من شمال ووسط الجزيرة ومقرها الأصلي المدينة المنورة، ومساكنهم من القصيم إلى المدينة جنوباً إلى حوران شمالاً وإلى وادي الفرات شرقاً، وقبيلة لام: تنسب إلى لام بن عمر وهي بطن جديلة من طيء بن زيد بن كهلان من القحطانية، ومساكنهم المدينة المنورة وما لها جُبُل أجا وسلمى. (الأمير: 2008، ص611) ومن جهة الشام والعراق، وقبائل حرب في بلاد الصفراء وينبع وهي ما بين مكة والمدينة، وبنوا حرام سلاطين حُلي بن يعقوب من جهة الجنوب. وتناولت المصادر بعض المشاهد التي ظهر فيها دور القبيلة، فمن ذلك ما قامت به القبيلة في بلاد الصفراء وينبع، والبلاد البيضاء من دور سياسي وعسكري وذلك عند وقوفها مع الشريف حمود بن عبد الله ضد العثمانيين، وخوضها معه معركة حامية الوطيس ضد العثمانيين سنة 1078هـ/1667، وبهذه المعركة لقنوا العثمانيين دروساً قاسية انتهت بقتل من قتل منهم، وأسر من أسر، وهروب من هرب، الأمر الذي ملأ مكة جيوشاً تبحث عن الشريف حمود وذلك في موسم حج سنة 1079هـ/1668. (أبو طالب: مخطوط، ورقة221)

وتشير المصادر إلى أنّ التضاريس الجبلية الصعبة كان تلعب دوراً في قوة القبيلة فقال يحي بن الحسين: ولما لم يجدوه ذهبوا للبحث عنه في النجود، ولما لم يجدوا له أثر، رجع الجيش العثماني يبحث عمن عاون الشريف حمود من قبائل بلاد ينبع والصفراء. (أبو طالب: مخطوط، ورقة221)

ويذكر أبو طالب واصفاً انتقام الجيش العثماني من قبائل ينبع والصفراء قائلاً: إنّ الجيش العثماني توجه قاصداً للقبائل بالمنطقة فقال: "فلفتوا رؤوسهم إلى الإيقاع بأهل ينبع وما بإزائها من العرب، وأداروا عليهم أقداح الغضب بكؤوس العطب، وأوثقوهم في السلاسل، وحصدوا منهم الرؤوس كما يحصد الزرع بالمناجل، وقتلوا من كبارهم ثلاثة عشر شيخاً لا يقاس بهم مقايس." (أبو طالب: مخطوط، ورقة221)، ثم يشير المصدر نفسه إلى أنّ هؤلاء كانوا من المشايخ الكبار ذوي الوزن الكبير وكان لهم من الشجاعة والبطولة فقال: "وكانوا الشواهين عليهم وهم الفرايس (الفرسان)." (أبو طالب: مخطوط، ورقة221)

وطبق الحلوى يصف تلك الحادثة قائلاً: "فانعطفوا على قبائل ينبع وما والاها من العربان وجرعوهم كؤوس الوبال والهوان... واحتزوا رؤوس... وهم منهم ثلاث عشر شيخاً" (الوزير: 1985، ص235)، وتذكر المصادر أنّ الشريف سعد بن زيد قام في منطقة الصفراء بعد هذه الأحداث بدور المصلح بين الجيش العثماني وقبائل تلك البلاد، فكان منه التخفيف والتسكين وإصلاح وتدارك الأمر بين الطرفين فانصرف الأتراك ومراحل الحقد لها غليان ممن أصابوا، وبالعموم يذكر المصدر أنّ الأمور سكنت، وعاد سعد مكة، وسمع له

الأعراب وأطاعوا، والجيش العثماني عاد إلى بلاده. (الوزير: 1985، ص235)

وتتجدد أدوار تلك القبائل في بلاد ينبع والصفراء في وقوفها مع أحمد بن زيد الذي فر هارباً ملتجأً لتلك البلاد وشيخها ابن مضيان أحد رؤوسها، وقررت تلك البلاد وقبائلها الوقوف مع أشراف مكة من بني زيد سعد بن زيد واخوه، فقاموا وتعرضوا للمحمل المصري حال عودهم من مكة آخر شهر الحجة سنة 1083هـ/1672، ورفضوا تسليم أحمد بن زيد أو طرده من بلادهم، كل ذلك وغيره مما أدى لدخول تلك البلاد ومشايخها في أتون حرب مع الجيش العثماني برفقة شريف مكة بركات (الأمير: 2008، ص838)، ويذكر يحيى بن الحسين: أنّ الشيخ ابن مضيان كان أحاش قبائل حرب (قبيلة بني حرب)، فوقعت الحرب فقُتِل من أصحاب ابن مضيان جماعة، أيضاً ومن أصحاب الشريف جماعة، حتى ورد انتصار قبائل تلك البلاد على شريف مكة ومن معه من الجيش العثماني، ومنعوهم من التصرف والنفوذ. (الأمير: 2008، ص838) ومن ثَمّ تأتي التعزيزات وتتغير مجريات المعارك، فيذهب الشريف بركات بقوة لبلاد قبائل حرب وبلاد الصفراء، فقامت الحرب، فأدب أهل تلك البلاد، واخمد ثائرة القبائل (ابن القاسم: 1996، ص233).

حتى أنّه: نزل من منى ومعه بعض الأشراف والعساكر السلطانية (الشلي: 2014، ص789)، والمصادر تذكر: "وبركات عاد من بدر إلى مكة صحبته بن مضيان، بعد أنْ البسه خلعة الأمان." (الوزير: 1996، ص306؛ أبو طالب: مخطوط، ورقة 232؛ ابن القاسم: 1996، ص233؛ الأمير: 2008، ص851)، والمصادر تذكر ذلك في بداية دخول سنة 1085هـ/1674م والمقصود مما ورد اهتمام الشريف بالصلح مع الأشراف، فلم يظفر بغير صلاح ابن مضيان بعد هول الرجوع إلى مكة. (الوزير: 1985، ص306؛ أبو طالب: مخطوط، ورقة 232؛ ابن القاسم: 1996، ص233؛ الأمير: 2008، ص851)؛ لأنّ ابن مضيان كما ورد: "رأس مشيخ بلاد قبائل حرب وبلاد الصفراء ما بين مكة والمدينة وهو الذي جرى معه ما جرى من معاضدة أحمد بن زيد والخلاف كما سبق." (ابن القاسم: 1996، ص233) يؤكد ما ورد: أنّ السلطان ندب وزيره في مصر للعمل لمحاصرة بن مضيان حتى يقلع أو يربع. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 232)

وإعطاء شريف مكة بركات خلعة الأمان لابن مضيان، وصار معه تحت الحفظ، مما يشير إلى حجم دور القبيلة في المجتمع المكي، بدليل أنّ يحيى بن الحسين ذكر في يوميات بعد هذه الحوادث: "فصار معه تحت الحفظ، بعد أنْ وقع ذلك الحرب، ثم تعقبه من بركات القصد، فانحاز إلى جبل هنالك، وطلب الأمان، وواجه وراح من أصحابه جماعة، وأدب الشريف أهل بلاده، وصلح عمل الحجاز، وخمدت ثائرة القبائل، وامتنعوا عن مناصرة سعد وصنوه خوفاً من السيف الطائل، والعسكر الصائل." (ابن القاسم: 1996، ص233؛ الأمير: 2008، ص851)

أيضاً ومن جهة أخرى القبيلة كانت تعيش صراع بيني؛ فقد ورد ما يشير إلى أنّ الفتنة البينية والقبائل مع بعضها البعض وظهور الثارات الأمر الذي يشير إلى أنّ غياب الدولة له آثاره على كل الأصعدة، ورد وفي موسم حج سنة 1085هـ/1674 حصل في عرفات اختلاف بين القبائل من هذيل الأمر الذي أدى للاقتتال بينهم، فقُتل منهم جماعات، وراح من المغاربة أربعة (ابن القاسم: 1996، ص236؛ الأمير: 2008، ص855) وأيضاً ورد أنّه في سنة 1086هـ/167 اشتعلت نار الفتنة بين الحرامية وأهل الحجاز، وسقط العدد من القتلى من الجانبين. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 234)

ومن زاوية أخرى يظهر أنّ القبيلة في مكة المكرمة لعبت أدواراً اجتماعية، مما يشير إلى أنّ من أسبابه ضعف التواصل بين الدولة والقبيلة، أو ضعف احتواء الدولة للقبيلة، مما جعل القبيلة في جهات مكة المختلفة تقوم بدور اجتماعي سلبي أدى إلى انتشار التقطعات والسلب والنهب والقتل للمسافرين خاصة الحجاج من وإلى مكة من أكثر من جهات مكة المختلفة. وممّا ورد سابقاً عرفنا الأدوار المشينة التي لعبتها كل من قبائل هذيل وقبائل عنزة ولام في الجانب الاجتماعي، فكان بعض الأفراد يقوم بأعمال التقطعات والنهب للمسافرين وهم في طريقهم للحج طيلة سنين القرن الحادي عشر، الأمر الذي جَرّ عليهم أسباب الويل، والحبس والارتهان. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 230-231، ورقة 243). وهذه الظاهرة تسميها المصادر اليمنية بالدُعَار والذي سبق أنْ أفردت الدارسة له مبحثاً خاصاً به ويجده القارئ ضمن بحوث الباب الاجتماعي.

المبحث الثاني: الفساد الإداري داخل المجتمع المكي.

مما ينبغي الإشارة إليه أنّ الفساد هو مجانبة الصواب، أو سوء الأخلاق أو إحداث الضرر بالآخرين، ويكاد لا يخلو مكان ولا زمان من هذه الآفة، حتى مكة المقدسة، إذ ورد في المصادر عدة صور في

عدة جوانب منها الرشوة، أو اغتصاب حقوق الناس، أو منع إنسان حقه، أو تلويث البيئة.

– **التعامل بالرشوة:** تناولت المصادر بعض صور التعامل بالرشوة في مكة المكرمة، فذكر طبق الحلوى: أنّ صفي الاسلام أحمد بن الحسن كان لديه رغبة جامحة في زيارة قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم أعاقه عن ذلك آغا كان متولي على ذلك، متعللًا بأعذار، حتى وصل الصفي إلى اليأس، فبعث إليه على وجه الخفية جملة من الذهب الأحمر (الوزير: 1985، ص133–134)، وطبق الحلوى يصف نتيجة ذلك بقوله: "فانقلب طبع الطواشي، وعاد تشمسه إلى التلاشي، وأنشد منه لسان الحال، ملاطفاً للصفي بقول من قال:

ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة ::: إلى فهلا نفس ليلى شفيعها
أأكرم من ليلى عليّ فأبتغي ::: به المال ام كنت امرأ لا اطيعها

ففتح له المقام الأزهر وقضى منه جميع الوطر." (الوزير: 1985، ص133–134)، ثم أشار المصدر إلى أنّ السلطان قام بإقالة الآغا عن مهمته، بعد أنْ تبيّن له ما عمله. (الوزير: 1985، ص133–134)

– **الاستغلال السيئ للسلطة:** تناولت المصادر بعض ما يشير إلى أنّ بعض سكان مكة المكرمة يتعرضون لسوء استغلال السلطة، وورد في هذا عدة صور منها: أنّه في عهد فترة الشريف محسن بن حسين بن حسن كان وزيره يسيء استغلال السلطة الملقاة على عاتقه فكان يأخذ ويصادر بعض حبوب الجراية من مصر المقررة صدقات للفقراء والمساكين في مكة، حتى أنّه تعرّض لدعاء المتضررين ويشكون به إلى الله. (الشلي: 2014، ص610)

وصورة أخرى توضح بعض جوانب الفساد أنّ أحد وزراء مكة ويسمى عبد الرحمن بن عتيق الحضرمي كان يتعرّض لبعض آل باعلوي بالأذى، حتى أنّهم لا يجدون من ينصف لهم منه إلّا دعاء الأولياء والصالحين. (الشلي: 2014، ص610)

– **اغتصاب بيوت الناس:** من صور الفساد والظلم الاجتماعي ويتمثّل في الأتراك القاطنين مكة المشرفة، إذ ورد اغتصاب بعضهم داراً على أهلها، الدار المشهورة بالخشخانة –وهي دار مشهورة في محلٍ عالٍ على أكمة قريب البئر الشهيرة بغليما في مقابلة الحجون، وكان يسميه زاوية السقاف وبناه– (الشلي: 2014، ص611) في المعلاة قهراً عدة سنوات، وحدث هذا في ولاية الشريف زيد بن محسن بن حسين، ولم يجد أصحاب الدار من ينصفهم إلّا توسلاً بدعاء الصالحين، وبالخصوص الشيخ علوي بن علي عقيل... السقاف. (ت: 1048هـ/ 1638) فذكر المصدر أنّ العقاب الإلهي نزل على هذا الظالم فأخرجه الله من هذه الدار، فكان أنْ وقع لهذه الواقعة تاريخ أرخ لها إبراهيم المهتار فقال:

أنعم بما كان فيه للنفوس هوى ::: عيش رحى وبيت للبقاع هَوِي
فقد حسبت بشيء تاريخه فأتى ::: حوى المسرات حي السيد العلوي

وصورة أخرى من صور الفساد الإداري ما تناوله الجرموزي في التحفة من قيام أمراء وبواش عثمانيين باغتصاب منازل الناس في مدينة جُدة بدون وجه حق، وطرد عنها أهلها، وظلوا على هذا الحال فترة، لا الشريف زيد بن محسن أنصف ولا غيره، حتى وصل ميناء جُدة أحد الأمراء العثمانيين الموصوف بالعدل –كان مكلفاً بمهمة عسكرية ببلاد الحبشة– فقام بإخراج من دخل هذه البيوت، حتى من كان في رتبة باش، فلم ينصرف من ميناء جُدة حتى تأكد له خروجهم من بيوت الناس وانصافهم (الجرموزي: 2002، 727–728)، مما يشير إلى أنّ هذا الإنصاف كان شيئاً عرضياً ولم يكن حالة مستدامة.

– **التلوث البيئي:** أشارت بعض المصادر إلى أنّ مكة المكرمة في إحدى الحقب الزمنية لهذا القرن كانت تعاني من التلوث البيئي المتضمن الانتشار الكبير لرائحة البالوعات المفسدة، مما جعل الجوّ كلّه في مكة غير صحي، إذ كان جو بمكة المكرمة بالأساس جواً صحياً في غاية الاعتدال، لكن رائحة البالوعات سبب بالأمراض لبعض السكان، فكان نصح الأطباء لهؤلاء المرضى بأنّ علاجهم هو الخروج عن مكة ولو إلى وادي المحصب بغرض الحصول على الجو الصحي. (الشلي: 2014، ص314)

المبحث الثالث: عادات وتقاليد سكان مكة.

تطرقت بعض المصادر التاريخية اليمنية الحديث عن بعض العادات والتقاليد السائدة في مكة بالحقبة المعنية بالدراسة والتي سنتحدث عنها عبر أربعة مطالب، الأول: العادات والتقاليد المتعلقة بالصحة، الثاني: عادات وتقاليد متعلقة بالمعاملات، الثالث: عادات وتقاليد متعلقة بالفن، الرابع: عادات وتقاليد متعلقة بالعمل الخيري.

– **العادات والتقاليد المتعلقة بالصحة:** بطبيعة الأمر أنّه يوجد الكثير من هذه العادات، ولكن نقيد هنا ما وصلت إليه الدراسة من المصادر التي وصلنا إليها، مثل الختان، والاعتقاد بالشعوذة.

– **الختانة:** تناولت بعض المصادر ما يشير إلى أنّ الختان كان في بلاد الحجاز من العادات والتقاليد البعيدة عن ما يألفه الناس، مما يشير إلى

أنّه لكل منطقة منها عاداتها وتقاليدها والتي تعطي مؤشراً للعلم أو الجهالات التي تسود تلك الحقبة من الزمن، ورصد أحد المصادر في مسألة الختان أنّ كان الناس في مسألة الختان يسلخون الجلد عن الذكر والمثانة إلى قرب من السرة، كما يسلخ أديم الكبش، فيفنى بهذا من يفنى، ويمقت من لم يفعل، وينسبونه إلى الخور في طبعه. (ابن أبي الرجال: 2004، ص436)، وشاهد ذلك أحمد محمد لقمان حين توجه ممداً للشريف محسن بن حسين سنة 1037هـ/1627 فوجد ذلك في أطراف الحجاز من البلاد التهامية فنهى عنه وأزاله. (ابن أبي الرجال: 2004، ص436) وفي مسألة الختان أيضاً كان هناك اعتقاد أنّ من دخل البلاد المكية والتي يكون بدايتها من صبيا لا يدخلها إلّا مسلم، فمن كان على غير ملة الإسلام وأراد الدخول لا بد من أنْ يعلن إسلامه، فإذا أسلم كان لابد من الختان، وحدث هذا مع أحد وزراء السلطان الهندي المسمى قايم بيك وهو من وزراء السلطان المسمى شاه جهان القادم لموسم الحج سنة 1065هـ/ 1654، كان من قوة الأثقال والأحمال، وصل المخا وأراد الحج براً، وكان له من الخدم وليسوا على ملة الإسلام، فلمّا وصلوا صبيا وأميرها محمد بن حسين بن أحمد الخواجي الذي عرفهم بما ذكر سابقاً، إمّا أنْ يعودوا، ولما كان من الإسلام ما لا بد منه لمرافقة سيدهم، كان لا بد من الختان وكان ذلك. (الجرموزي: 2002، ج2، ص929). ويعتقد الباحث أنّه كان يوجد غلو وتشدد في تطبيق تعاليم الإسلام، مع أنّ الدِّين يُسْر ولا يُشَاد الدين أحدٌ إلّا غلبه.

– **الشعوذة:** تروي بعض المصادر قصة أخرى تشير إلى الجهل بين العامة ذكرت أنّ عبدًا سَمّى نفسه ريحانة على أنّها طبيبة تعالج النساء قيل من الحَبْل، وكان كاذب يعتدي على النساء فكُشف أمره على يد السيد أحمد بن محمد لقمان، فقبض عليه وضرب عنقه، وكان ذلك في أطراف الحجاز التهامية سنة 1037هـ/ 1627. (الثور: 2004، ص658؛ ابن عامر: 2011، ص380)

– **عادات وتقاليد متعلقة بالمعاملات:** تناولت بعض المصادر بعض صور المعاملات السائدة في مكة في الحقبة المعنية بالدراسة فذكرت موضوع الضمان.

الضمان: يعتقد الباحث أنّ المقصود منه هو الضمان المتعلق باللهو والطرب وهو كفيل يفتح باسمه ما يسمى اليوم بمسرحيات أو دور سينما أو محلات الغناء والرقص مقابل الفائدة الاقتصادية، فكان ممزوجاً بين الثقافي والاقتصادي، ويعتقد الباحث أنّ ذلك يشابه ما يعرف الآن في المملكة بالكفالة للأجانب.

والضمان يخص المعاملات التجارية والقانونية، ويُعدُّ ضماناً من قِبل طرف واحد إلى الطرف الآخر بحيث يمنح هذا الطرف الآخر الاعتماد على هذا التأكيد؛ وحكمه جائز عند كل المذاهب بدليل قوله تعالى: {ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم} (يوسف: 72)، ولكن هذا الضمان له وجوه متعددة، وهناك وجوه غير جائزة. سُئِلَ ابن تيمية عن ضامن يطلب منه السلطان على الأفراح التي يحصل فيها بعض المنكرات من غناء النساء الحرائر للرجال الأجانب ونحوه، يقول ابن تيمية: نهي عن الغنا لأنّه يدعو إلى الزنا، هنا كُتُبْ الفقه أنكرت إنكاراً شديداً بنصب مغنية للنساء والرجال، وهذا ما كان عليه في مكة في الحقبة المعنية من أنّ الضمان كان من لوازم وجود اللهو والطرب، ويؤكد هذا ما تناولته بعض المصادر: في سنة 1080هـ/ 1669 أنّ حسن باشا أمر بإسقاط الضمان في مكة. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 224؛ الوزير: 1985، ص251) ويؤكد ما كان قد نهى عنه والي جُدة السابق مصطفى باشا كما سيرد علينا لاحقاً. (الوزير: 1985، ص127).

– **العادات والتقاليد المتعلقة بالفن والأعياد والاحتفالات:** أوردت المصادر ما يشير إلى أنّه نتيجة لتأثير الفكر الصوفي في مكة كانت الدفوف منتشرة في الزوايا، كما أنّ النساء يخرجن ليلة المولد الشريف، وظاهرة الجواري والإماء واستعمالهن باللهو والطرب وغير ذلك مما أحدث ذلك امتعاضاً لدى علماء مكة؛ منهم الشيخ محمد بن سليمان المغربي، والذي تقدم بالشكوى للسلطان العثماني، حتى يعمل حداً لمثل هذه المنكرات؛ بدوره أمر بإنهاء هذه العادات المخالفة. (الشلي: 2014، ص790)

أيضاً كان في مكة تلك الحقبة من الزمن أعياد واحتفالات خاصة، منها ما كان خاصاً بالتبعية للدولة العثمانية ورد في ذلك أنّ كانت مكة تحتفل وتتزين خاصة أسواقها لنصرٌ حققته الدولة العثمانية، في هذا الشأن ورد أنّ مكة تتابع الحملات العسكرية العثمانية والفتوحات الاسلامية، فوقع على غرار ما ورد أنّ مكة احتفلت وتزينت في الانتصار العثماني في مالطة سنة 1075هـ/ 1664 شهر ربيع الأول. (الوزير: 1985، ص194) أيضاً ورد أنْ لبست الأسواق بمكة وجُدة الزينة في شهر رمضان سنة 1080هـ/1669 فرحاً بفتح السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد مالطة. (الأمير: 2008، ص749)

أيضاً ورد في سنة 1084هـ/ 1673 وصل الخبر لمكة بفتح مالطة والاستيلاء عليها وقلعتها والحكم عليها ودخولها مملكة السلطان العثماني محمد بن إبراهيم بن أحمد خان؛ وكان فيها من الثروة المعدنية والذهبية ما زاد من قوة السلطان العثماني، كل ذلك وغيره شاع بمكة؛ ووصلتها البشارات، فكان أنْ تزينت الأسواق بمكة وجُدة إظهاراً للبشارة (ابن القاسم: 1996، ص226-227) وهذه في حالات الأفراح، وكانت مكة تشارك الدولة العثمانية حالات الأحزان أيضاً، فعند قيام الإفرنج بقتل الآلاف من المسلمين ونهب الأموال الطائلة سنة 1084هـ/ 1673، مما جعل السلطان محمد بن إبراهيم يتحرك بنفسه لقتالهم على رأس قوة عسكرية كبيرة فما كان من مكة إلّا مشاركة الحدث كان ذلك عقب موسم الحج سنة 1084هـ/ 1673 من شهر ذي الحجة اليوم 25، فاحتشد أهل مكة وأعيانها وعلماؤها بحضور شريف مكة ومحمد شاويش حاكم جُدة للدعاء في الحرم الشريف، وانضم أمير المحمل الشامي، وفتح باب الكعبة ورقي الخطيب إليه وكان دعاؤه للسلطان بالنصر والناس يؤمنون ويضجون بالبكاء وختم بالفاتحة. (ابن القاسم: 1996، ص236)

– **اللهو والطرب في مكة:** أشارت المصادر إلى ظاهرة الجواري والإماء واستعمالهن باللهو والطرب في بيوت ملوك مكة، المصادر تعلل ذلك: وذلك لطول عهدهم وجهلهم بالشريعة، مما أدى إلى حدوث ما تستقبحه العقول من الاسترسال بهن يطربن لهم؛ ويظهرن للخدمة في مجالسهم الخاصة، وقد تكون في العامة، وربما يطربن لمواليهن كما يبلغ.

والجرموزي رصد هذه الظاهرة خلال نزوح شريف مكة محسن بن حسين بن حسن إلى اليمن مع أهله وجواريه سنة 1037هـ/1627، فأقيم له مضرب من الخيام لأهله وجواريه، وحاشيته في مدينة أقر، فكان من إمام صنعاء يتفقد ضيوفه، وكيف تمت ضيافتهم ؟! فذهب إلى مكانه في خواصه، ذكر الجرموزي ما نصه: "أخبرني الصنو السيد الفاضل قاسم بن حمزة الغرباني أنّ الإمام... كان في مضرب الشريف فرأى الجواري على المعهود-شبه عاريات- فقام غاضباً وغطى رأسه... وهو يقول: حق الله أعظم، حق الله أعظم، ولم يَعدْ مضرب الشريف." (الثور: 2004، ص661). ويوضح أكثر أبو طالب إذ يصف أهل مكة بناء على ما سبق بما نصه: "وفي أهل مكة بعدٌ عن الحقائق، والاسترسال من اللهو في غير موافق، وضرب الإيما لهم بالدفوف حالة مأنوسة، لديهم مألوفة، فجاءه الإمام- أي إلى الشريف محسن بن حسين- في بعض الأيام فضربن له وهو لا يظن الغُنا إلّا حالة معروفة -أي بعيد عن المنكرات-، فقام الإمام مغاضباً وغطى على رأسه وقال حق الله آكد وأعظم." (أبو طالب: مخطوط، ورقة 115)

وأشار أحد المصادر إلى كثرة ما يستعمل أهل مكة من اللهو والطرب، الأمر الذي كان محل انكار بعض العلماء وذلك منذ ما قبل سنة 1035هـ/1625، منهم العالم الجليل لطف الله بن محمد الغياث (ت: 1035هـ/ 1625) الذي كان كثير الإنكار على ما يستعمله أهل مكة من اللهو المصاحب للسماع. (الشوكاني: 2006، ص626) حتى أنّ استخدام آلات اللهو والطرب المعمول به في ولاية الحجاز عموماً وميناء جُدة خصوصاً كانت إحدى أسباب قتل والي جُدة مصطفى بيك المتصف بمعارضته لشريف مكة زيد بن محسن، فكان من جملة اعتراضاته على الشريف تكسير آلات الطرب، مما أدى للانتقام منه والإطاحة بحياته ثمناً لتغيير ذلك المنكر سنة 1061هـ/1650. (الوزير: 1985، ص127). وأبو طالب يذكر: أنّ مصطفى باشا والي جُدة أزال الملاهي في مكة، وكان من أسباب قتله. (أبو طالب: مخطوط، ورقة 190)، ونتيجة لما قام به والي جُدة العثماني مصطفى المذكور سلفاً أخبر الحجاج مشيرين إلى موسم حج 1060هـ/ 1650 أنّهم ما سمعوا من آلات الطرب شيئاً. (ابن القاسم: 1996، ص79)

– **إقامة الموائد الواسعة من الطعام:** تطرقت بعض المصادر لبعض صور من العمل الخيري، كإقامة الموائد الفاخرة الواسعة من الأطعمة، والذي كان من العادات الطيبة لأهل مكة فتناول الشلي شيئاً من هذا فذكر أنّ الشيخ محمد بن علي العيدروس صاحب الشبيكة (ت: 1066هـ/ 1655) كان يقيم بمنى مدة طويلة يُقَدِّم العديد من الموائد والأطعمة الفاخرة، وذلك لمن يفد إليه من الأعيان وغيره. (الشلي: 1314هـ، ص195.)

– **خُطبة الميت:** من تتبع المصادر-وحسب ما يعتقد الباحث- أنّ هناك ما يشير إلى مزاولة عادة دينية يمارسها أهلها سلفا بعد خلف داخل مكة، وهي خطبة للميت أثناء القيام بغسل الميت، وفي هذه الخطبة يذكر الخطيب حياة الميت الحافلة بالمكرمات، وتكون قبل صلاة الجنازة، ويعتقد الباحث أنّها محصورة على الأشراف. ووصل الباحث إلى هذا ممّا تناوله الشلي عن عدد من الوفيات، منهم المتوفى السيد ماجد بن جازان بن أبي القاسم بن بركات الحسني

المكي سنة 1029هـ /1619 إذ كانت جنازته حافلة قال: وخُطِب له بعد موته على زمزم قبل الصلاة كعادة أسلافه. (الشلي: 2014، ص435)، وأيضاً ورد أنْ خُطِبَ على زمزم بعد موت السيد منصور بن أبي نُمي بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بمكة سنة 1030هـ/1620 (الشلي: 2014، ص441)، وأيضاً قال: خطب على زمزم بعد موت أبي القاسم بن بشير بن أبي نُمي بن بركات الحسني المكي سنة 1034هـ/ 1624 (الشلي: 2014، ص476)، وأيضاً قال: خُطب على زمزم بعد موت السيد علي بن أبي طالب بن حسن السنة نفسها سالفت الذكر (الشلي: 2014، ص476) ويعتقد الباحث أنّ ذلك نتيجة لقوة المعتقد السلالي والطائفي والقبلي والتي كان أصحابها يعملون على تقويتها وسيلة من وسائل الحماية والقوة والمنعة.

الخاتمة:

وصلت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

– ممّا ورد من تفاصيل دقيقة في تاريخ مكة ووضعها الاجتماعي في القرن الحادي عشر الهجري يشجع كثيراً على وجود الفرصة لكتابة تاريخ مكة المكرمة وغيرها من البلدان في شتى المجالات.

– المصادر التاريخية اليمنية تحتاج لمزيد من الاهتمام فهي بمثابة المكان البكر المليء بالثروة التاريخية والفكرية والتي توازي غيرها من الثروات المعدنية والتي تحتاج إلى تنقيب.

– ما ورد في هذه الدراسة يشير إلى أنّ ما تعاني منه الأمة العربية والإسلامية الآن هو ما كانت تعاني منه أم القرى في القرن الحادي عشر الهجري، الأمر الذي يشير إلى أنّ مكة المكرمة هي القلب بالنسبة لجسد الأمة العربية والإسلامية، وأنّ صلاحها هو صلاح الجسد العربي والإسلامي، وأنّ فسادها يؤدي لفساد الجسد العربي والإسلامي، وأنّ مكة المكرمة هي بداية النهضة.

قائمة المراجع:

– الأمير، أمة الغفور عبد الرحمن علي (2008): الأوضاع السياسية في اليمن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي (1054-1099هـ/1644-1688م) مع تحقيق: بهجة الزمن في تاريخ اليمن للمؤرخ: يحيى بن الحسين بن القاسم، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء.

– الثور، أمة الملك إسماعيل (2004): بناء الدولة القاسمية في عهد المؤيد محمد بن القاسم مع تحقيق: مخطوطة الجوهرة المنيرة في جمل من عيون السيرة، للمؤرخ: مطهر الجرموزي، جامعة صنعاء.

– الجرموزي، مظهر محمد (2002): تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، تحقيق: عبد الحكيم الهجري، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء.

– ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح (2004): مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية، تحقيق: عبد الرقيب مظهر محمد حجر، عناية: مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي، منشورات مركز أصل البيت للدراسات الإسلامية، اليمن– صعدة.

– الشلي، محمد بن أبي بكر الحضرمي (2014): عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن سليمان المزيني، راشد بن سعد القحطاني، تحقيق التراث، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض.

– الشلي، محمد بن أبي بكر الحضرمي (1314هـ): المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، مكتب غانة جامعة عثمانية، المطبعة العامرية الشرقية.

– الشوكاني، محمد بن علي (2006): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد بن حسن حلاق، دار ابن كثير، بيروت– دمشق.

– أبو طالب، حسام الدين محسن بن الحسن: تاريخ اليمن المسمى طيب أهل الكساء والفلك الذي على جودي النجاة رسا، مخطوطة تمّ الحصول عليها من شبكة النت عبر الرابط التالي: https://t.me/libraryadel/55082 TELEGRAMمكتبة المعلم اليمني.

– ابن عامر، عامر بن محمد بن عبد الله الحسني (2011): بغية المريد وأنس الفريد إلى معرفة انتساب ذرية السيد علي بن محمد بن علي بن الرشيد، تحقيق السيد: عباس بن أحمد الخطيب المتوكل، مؤسسة الإمام زيد بن علي، صنعاء.

– ابن القاسم، يحيى بن الحسين (1996): يوميات صنعاء في القرن الحادي عشر الهجري (1046-1099هـ)، مشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي– الإمارات.

– الوزير، عبد الله بن علي (1985): تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي (1045-1090هـ) (1635-1680) المسمى تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، 1405/1985هـ، ط2، عام 1428هـ، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، صنعاء.